الفصل السادس

الطاعة والمعصية بين الكتمان والإظهار

● **الطاعة بين الكتمان والإظهار :**

ينبغى على المؤمن السالك الطريق إلى الله تعالى : أن يجتهد فى إخفاء طاعاته ، وستر أعماله الصالحات عن أعين الخلق وآذانهم ما استطاع ، مكتفياً بأن الله تعالى يسمع ويرى ، وأن الخلق لا يملكون له ضراً ولا نفعاً ، وأن رضوان الله تعالى ومثوبته فوق رضا الخلق وثنائهم .

وهذا بالنسبة إلى النوافل والتطوعات ، أما الفرائض والأركان ، فهذه يجب إظهارها ، تعظيماً لشعائر الإسلام ، وإبرازاً لقوة تمسك المسلمين به ، ومنعاً للتهمة وإساءة الظن بالمسلم أن يُظن به تضييع ما فرض الله عليه ، وضرباً للمثل حتى يقتدى به غيره ، ويتشبه به الآخرون ، فإن الخير يغرى بالخير ، والصلاح يدعو إلى الصلاح .

هذا هو الأصل فى الفرائض : الإظهار والإعلان ، أما الأصل فى النوافل فهو الإخفاء والكتمان .

ومع هذا يمكن أن تظهر نوافل الطاعات والصالحات من المسلم من غير قصد لإظهارها مراءاة للناس ، وقد يفرح بذلك ويبتهج ، فرح الإنسان بكل خير يحققه لنفسه .

(أ) وهو فرح محمود إذا كان شكراً لله تعالى على نعمة التوفيق للطاعة ، وحسن لطفه سبحانه بإخفاء السيئات وإظهار الحسنات ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (١) .

---

(١) يونس : ٥٨

ومن أذكار الصالحين : سبحان مَن أظهر الجميل ، وستر القبيح !

(ب) وللتفاؤل بأن يفعل الله تعالى معه ذلك فى الآخرة كما فعله فى الدنيا ، أى يستر مساوئه ، ويظهر محاسنه ، كما فى القول المأثور : « ما ستر الله على عبده فى الدنيا إلا وستر عليه فى الآخرة » .

وفى معناه قال الشاعر :

لقد أحسن الله فيما مضى كذلك يُحسن فيما بقى !

فيكون الفرح الأول فرحاً بالقبول فى الحال ، من غير ملاحظة للاستقبال ، والفرح الثانى التفاتاً إلى حال المآل ، وحسن المنال [1] .

(جـ) وقد يكون فرحه بظهور الطاعة ، لأنه سيكون حافزاً لغيره ، ليقتدى به ، ويحذو حذوه ، فيكثر الصالحون ، ويزداد عدد المطيعين لله تعالى ، ويتسع نطاق الخيرات ، والأعمال الصالحات ، فيتضاعف الأجر عند الله تعالى .

(د) وقد يكون فرحه ، لأن المطلعين على عمله سيحبونه فى الله ، ويرضون عنه ، ويثنون عليه ، وبهذا يُثابون على ذلك ، ويدخلون فى أوثق عرا الإيمان ، فقد جاء فى الحديث : « أوثق عرا الإيمان : الحب فى الله والبغض فى الله » [2] ، وفى حديث أنس المتفق عليه : « ثلاث مَن كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله » . . . . الحديث [3] .

ويعرف صدق هذه الدعوى - دعوى فرحه بإثابة الناس لحبهم له فى الله ،

---

(١) انظر : شرح كتاب « عين العلم وزين الحلم » للعلامة على القارى .

(٢) رواه أحمد وابن أبى شيبة عن البراء ، والطيالسى ، والطبرانى فى الكبير والأوسط ، والحاكم عن ابن مسعود ، والطبرانى عن ابن عباس ، صحيح الجامع الصغير (٢٥٣٩) .

(٣) متفق عليه : اللؤلؤ والمرجان (٢٦) .

أو فرحه باقتدائهم به فى عمله - إذا استوى عنده مدحه ومدح غيره من الصالحين .

(هـ) ومما يُحمد لأجله إظهار العمل الصالح : ترغيب الآخرين فيه ، وسن السُّنَّة الحسنة ليُقتدى بها فيُهتدى ، وفى صحيح مسلم من حديث جرير ابن عبد الله : « مَن سنَّ سُنَّة حسنة ، فله أجرها وأجر مَن عمل بها إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من أجورهم شىء » .

وقد أُمِرَ الأنبياء والرسل بالإظهار للطاعات ، لأن الله تعالى جعلهم أسوة لأتباعهم ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً ﴾ (١) .

ومثل الأنبياء : خلفاؤهم وورثتهم من العلماء والدعاة والصلحاء ، من كل مَن يُقتدى به .

وقال الحسن : قد علم المسلمون أن السر أحرز العملين ، ولكن فى الإظهار أيضا قد تكون فائدة .

فلذا أثنى الله على السر والعلانية ، فقال تعالى : ﴿ إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِىَ ، وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٣) .

وقال علىّ رضى الله عنه : تصدَّقتُ بدرهم فى ليل وآخر فى نهار ، وبدرهم سراً ، وآخر علانية ، عملاً بالآية .

وبهذا يكون قد عبد الله فى كل الأوقات ، وعلى كل الأحوال ، وإن كان الإسرار بالصدقة أفضل ، وخصوصاً إذا خشى على نفسه الرياء ، والفتنة

---

(١) الأحزاب : ٢١ (٢) البقرة : ٢٧١ (٣) البقرة : ٢٧٤

بمحمدة الناس ، أو كان فى الإسرار رعاية لحرمة الفقير ، وحفظ لكرامته ، لا سيما إن كان من المستورين المتعففين ، الذين وصفهم القرآن بقوله : ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً ﴾ (١) .

وفى حديث أبى هريرة المتفق عليه عن « السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » ذكر أحد الأصناف ، وهو : « رجل تصدَّق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه » (٢) .

وهذا هو المقام الأعلى ، ولكن إذا أبدى الصدقة ، أو أظهر العمل الصالح ، لسبب من الأسباب التى ذكرناها من قبل ، فلا حرج عليه ، والواجب عليه أن يفتش عن دخيلة نفسه ، ويحترس من خداعها ، فإنها أمَّارة بالسوء ، خدَّاعة غرَّارة ، وليحذر ما استطاع من الرياء ، فربما كان هناك رياء فى غاية الخفاء ، يتسلل إليه ، وهو لا يشعر ، فيحبط عمله ، وهو يحسب أنه يُحسن صنعاً ، وهنا لابد له من الاستعانة بالله جلَّ وعلا ، والبراءة من الحَوْل والقوة ، واللّجوء إلى حَوْل الله سبحانه وقوته ، ومن الدعاء المأثور : « اللّهُمَّ إنَّا نعوذُ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه » (٣) .

* *

● **كتمان الذنوب :**

وإذا كان الشرع قد جاء بالرُخصة فى إظهار الطاعات ، وخصوصاً الفرائض ، بل والنوافل فى بعض الأحيان ، لتحقيق أهداف ذكرناها ، فإنه لم يشرع إظهار المعاصى والإعلان عنها ، بل أمر بإخفائها إن وقعت ، وكتمانها عن الغير ما استطاع ، لا مراءاة للناس ، ولا طلباً لثنائهم ، وظهوراً بصورة يحبونها ، وإن كانت غير صورته الحقيقية .

---

(١) البقرة : ٢٧٣ (٢) متفق عليه عن أبى هريرة : اللؤلؤ والمرجان (٦١٠) .

(٣) تقدم تخريجه من حديث أبى موسى ص ٤٩

بل إنما يُحمد كتمان الذنوب ، وكراهة إطلاع الناس على العيوب ، لعدة أسباب :

أولاً : لأننا مأمورون إننا إذا ابتلينا بمعاصى الله أن نستتر بستره سبحانه ، ولا نفضح أنفسنا ، وفى الحديث : « اجتنبوا هذه القاذورات التى نهى الله عنها ، فمن ألمَّ بشىء منها فليستتر بستر الله تعالى » (١) .

ومن أجل هذا يكره ظهور المعصية من غيره ، كما يكرهها من نفسه ، وفى الصحيح : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » (٢) ، ومفهومه : أن يكره له ما يكره لنفسه .

وثانياً : للتحامى عن هتك ستره ، وظهور أمره ، خوفاً من سقوط وقع المعاصى من النفس ، وجرأتها عليها ، فإن النفس متى ألفت ظهور الذنوب ، زاد انهماكها فيها ، واسترسلت فى شهواتها بارتكابها ، ولم تبال باجتنابها .

وهذا الخوف من هتك الستر فى الدنيا يتبعه خوف من الهتك فى الآخرة ، وهو أشد وأخزى . ولهذا يقول الطيبون : اللَّهُمَّ كما سترتَ علينا فى الدنيا ، استر علينا فى الآخرة ، ولا تفضحنا على رؤوس الأشهاد ، يوم العرض عليك .

وثالثاً : لئلا يقلده غيره ، فيكون سبباً فى انتشار معاصى الله فى الأرض ، وتجرىء الناس عليها ، فحسبه أن يتورط هو فى المعصية ، ويسأل الله التوبة والمغفرة ، ولكن لا يظهرها فتشيع وتتسع ، فإنها تعدى كما يعدى الأجرب السليم ، وتؤذى كما يؤذى نافخ الكير جاره ، فإذا غرق هو ، فهو يكره أن يغرق غيره معه .

ولهذا ينبغى للعاصى أن يخفى معصيته حتى عن أقرب الناس إليه ، مثل أهله وولده ، وخادمه ، حتى لا يتأسوا به .

---

(١) رواه الحاكم (٤/ ٢٤٤) عن ابن عمر ، وقال : صحيح على شرطهما ، ووافقه الذهبى ، وجوَّد إسناده الحافظ العراقى فى تخريج « الإحياء » ، وصححه ابن السكن .

(٢) متفق عليه عن أنس : اللؤلؤ والمرجان (٢٨) .

ورابعاً : ليكون فى مظنة العفو والمعافاة من الله تعالى ، ولا يدخل فى زمرة المتبجحين المجاهرين بالسوء ، المتفاخرين بما ارتكبوا من موبقات ، وما اصطنعوا من مغامرات ، وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة : « كل أمتى معافى إلا المجاهرين ، وإن من المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ، ثم يصبح ، وقد ستره الله ، فيقول : يا فلان ؛ عملتُ البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر الله عنه » (١) .

وخامساً : ليكون من أهل الحياء ، الذين يمنعهم حياؤهم وسلامة طبعهم من إظهار المعصية ، وفى الصحيحين عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ مرَّ على رجل من الأنصار ، وهو يعظ أخاه فى الحياء . فقال : « دعه ، فإن الحياء من الإيمان » (٢) .

وفيهما عن أبى هريرة : « الإيمان بضع وستون شُعْبة ، والحياء شُعْبة من الإيمان » (٣) .

وفيهما عن عمران بن حصين : « الحياء لا يأتى إلا بخير » (٤) .

وسادساً : ليدخل فى زمرة المشهود لهم من الأُمة بالخير ، والناس شهداء الله فى الأرض ، وكما قيل : ألسنة الخلق أقلام الحق ، وكما قال النبى ﷺ للصحابة فى جنازة مرَّت فأثنوا عليها خيراً فقال : « وجبت » ، وأخرى أثنوا عليها شراً » فقال : « وجبت » ، فقال عمر بن الخطاب : ما وجبت ؟ قال : « هذا أثنيتم عليه خيراً ، فوجبت له الجنَّة ، وهذا أثنيتم عليه شراً فوجبت له النار ، أنتم شهداء الله فى الأرض » (٥) .

---

(١) متفق عليه : اللؤلؤ والمرجان (١٨٨٣) .
(٢) متفق عليه : اللؤلؤ والمرجان (٢١) .
(٣) متفق عليه : اللؤلؤ والمرجان (٢٢) .
(٤) متفق عليه : اللؤلؤ والمرجان (٢٣) .
(٥) متفق عليه عن أنس : اللؤلؤ والمرجان (٥٥٣) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ما من مسلم يموت يشهد له أهل أربعة أبيات من جيرانه الأدنين : إنهم لا يعلمون إلا خيراً ، إلا قال الله : قد قبلتُ علمكم فيه ، وغفرتُ له ما لا تعلمون » (١) .

وسابعاً : لئلا يتسبب فى ذم الناس له ، فيقعوا فى المعصية بسبب هذا الذم ، أو بتجاوزهم الحد ، حتى يُذَم بما ليس فيه ، أو بأكثر مما فعل ، كما هو المعتاد فى مثل هذه المواقف ، وهو لا يحب أن يُعصى الله تعالى بسببه ، ويكفيه ما ابتُلِيَ به من معصية ، وهو لهذا يتألم إذا ذم الناس غيره من العصاة كما يتألم لذم نفسه .

وثامناً : لئلا يتألم بذم الناس إذا اطلعوا على معصيته ، فإن الذم مؤلم للقلب ، وهذا أمر جبلّى فُطِرَ عليه الإنسان ، كما أن الضرب يؤلم الجوارح بالطبع ، وربما صار هذا التألم - وخصوصاً إذا استمر واشتد - مانعاً من الخشوع فى العبادة ، بسبب الانفعال والتوتر الناشئ عن تألمه .

ولا جُنَاح على المسلم أن يبتعد ويهرب من كل ما يؤلم جسده أو قلبه ، فليس هذا بحرام .

وإن كان المقام الأعلى أن تزول عنه رؤية الخلق ، فيستوى عنده ذامه ومادحه ، لعلمه أن الأمر كله بيد الله تعالى ، وأنه هو الضار النافع ، وأن العباد كلهم مقهورون تحت سلطانه . روى الترمذى من حديث البراء بن عازب وحسَّنه : أن رجلاً قام فقال :

---

(١) ذكره المنذرى فى « الترغيب والترهيب » وقال : رواه أبو يعلى وابن حبَّان فى صحيحه ، وقال الهيثمى : رواه أحمد وأبو يعلى ورجال أحمد رجال الصحيح (٣/ ٤) ، ورواه الحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبى (١/ ٣٧٨) .

يا رسول الله ؛ إن حمدى زَيْن ، وإن ذمى شَيْن ! فقال عليه الصلاة والسلام : « ذاك الله عَزَّ وجَلَّ » (١) .

وتاسعاً : لخوفه أن يُقصد بسوء أو أذى إذا ظهرت معصيته ، وهذا أمر وراء الذم ، فإن الذم مكروه من حيث يشعر القلب بنقصانه ، وإن كان ممن يُؤمَن شره ، وهنا يخاف شر مَن يطلع على ذنبه ، ولا حرج على المسلم أن يجنب نفسه الأذى بتجنب أسبابه ما استطاع .

* *

● **حب محبة الناس :**

ولا جُناح على المسلم إذا كان يحب من الناس أن يحبوه ويوادوه ، فهذا أمر فطرى فى الإنسان : أن يُحِب ويُحَب .

ومن ناحية أخرى ، هو يرجو أن تكون محبة الناس ، ولا سيما أهل الخير منهم ، دليلاً على محبة الله تبارك وتعالى ، فهو الذى وضع له القبول فى قلوب عباده ، وستر قبيحه ، وأظهر جميله ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً ﴾ (٢) ، فهو يرجو أن يكون منهم ، فإن مَن أحبه تعالى جعله محبوباً فى قلوبهم .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا أحب الله عبداً نادى جبريل ، فقال : إن الله قد أحب فلاناً ، فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل فى أهل السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض » (٣) .

---

(١) رواه الترمذى فى أبواب التفسير فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ (الحجرات : ٤) ، وقال : حسن غريب (٣٢٦٣) .

(٢) مريم : ٩٦ (٣) متفق عليه عن أبى هريرة : اللؤلؤ والمرجان (١٦٩٢) .

وأرفع من هذا المقام : أن يكون أكبر همه حب الله تعالى ، ورضاه سبحانه عنه ، ولا يبالى أرضِىَ الخلق عنه أم سخطوا ، أحبوا أم كرهوا ، على حد قول القائل :

إذا صح منك الود فالكل هيِّن وكل الذى فوق التراب تراب !

وإذا تعلق قلبه بحب بعض الناس فلأنهم أحباب الله تعالى كالذين وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ (١) .

وفى الأدعية المأثورة : « اللَّهُمَّ إنى أسألك حبك ، وحب مَنْ يحبك » (٢) .

* * *

(١) المائدة : ٥٤

(٢) جزء من حديث رواه الترمذى عن معاذ مرفوعاً وقال : حسن صحيح . وأول الحديث : « اللَّهُمَّ إنى أسألك فعل الخيرات ... » إلخ ، ورواه من حديث عبد الله بن يزيد الخطمى أنه - عليه الصلاة والسلام - كان يقول فى دعائه : « اللَّهُمَّ ارزقنى حبك ، وحب مَن ينفعنى حبه عندك ... » الحديث ، وقال : حسن غريب (٣٤٩١) .